الفصـــل الأول

استقرار العرب والمسلمين فى ساحل شرق أفريقية

- السكان الأصليون ٠
- الوصول المبكر الى ساحل شرق أفريقية ٠
- استقرار العرب فى ساحل شرق أفريقية ٠
- المهاجرون الآسيويون ٠

يقصد بتعبير منطقة شرق افريقية دول اثيوبيا والصومال وكينيا وأوغندة وتنزانيا ، فضلا عن راوندى وبوروندى ، وهى مساحة هائلة تبلغ حوالى ١ر٨ مليون كيلو متر مربع ، وتمتد من دائرة عرض ٤ درجة شمالا حتى دائرة عرض ١٠ درجة جنوبا ، كما تمتد بين خطى الطول ٣٠ و ٤٠ درجة شرقا ، أى لمسافة ١١٢٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب وسميت المنطقة شرق افريقية ، لأن الطابع الذى يميزها تستمده من موقعها الجغرافى فى شرق القــارة ، فالاخدود الغربى يكاد يكون فاصلا بين هضبة شرق افريقية ومنخفض زائيرى (١) • ومن الملاحظ أن العوامل الطبيعية والثقافية جعلت من الأراضى الساحلية عالما منفصلا عن بقية شرق افريقية ، فالهضاب الممتدة من الشمال الى الجنوب كانت بمثابــة حاجز ضخم خلال فترة طويلة من التاريخ ، عزلت المناطق الساحلية ، وجعلت الاتصال بالداخل أمرا صعبا نسبيا ، ونتيجة لذلك فرضت عليها أن تتجه الى الشرق ، نحو عالم شبه الجزيرة العربية والمحيط الهندى ، وأن ترتبط بهــذا العالم عن طريق البحر عبر مضيق باب المندب ، أو عن طريق المسالك الملاحية فى المحيط الهندى • ومن أبرز العوامل الجغرافية الأخرى ، أن المطر بوجه عام يمثل أعظم خاصية طبيعية فى شرق افريقية ، فعلى الساحل ينهمر المطر بكميات وفيرة ، بينما تقل كمية سقوطه فى الداخل ، الأمر الذى يؤكد عزل الساحل عن الداخـــل (٢) •

ويهمنا بصفة خاصة منطقة ساحل شرق افريقية المطلة على المحيط الهندى الممتدة من مقديشيو فى الشمال الى سفالة فى الجنوب • ويحملنا هذا على استبعاد اقليم اثيوبيا وقرن افريقية الشرقى (الصومال) ، اذ سكنت هذا الاقليم منذ عصور موغلة فى القدم عناصر سكانية ، هى جزء من المجموعة الحامية التى يطلق عليها « الحاميون الشرقيون » ، وان كان قد تأثر قليلا بالعناصر الزنجية التى وفدت عليه من الجنوب • ومنطقة الساحل هذه التى تهمنا ، هى التى كانت حلقة

---

(١) ابراهيم رزقانة : العائلة البشرية ، ص ٢٩٥ ، عبد الغنى سعودى : افريقية ، ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ •

(٢) Morgan, East Africa, p. 163;

حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ •

الوصل بين داخل هضبة البحيرات العظمى والعالم الخارجى • وبمعنى آخـــر هى التى أوصلت الروابط التجارية والثقافية ، التى ترجع فى غالبية أصولها الى الحضارة الاسلامية ، الى داخل الهضبة على الأقل • ومما تجدر الاشارة اليه أن الجزر القريبة من الساحل تدخل فى نطاق تلك المنطقة الساحلية ، كما أن جزيرة مدغشقر رغم أن المسافة بينها وبين ساحل القارة لا تزيد عن ٤٠٠ كيلو متر ، وتمثل جزءا منفصلا عن هضبة شرق افريقية ، الا أنهـا من الناحيـــة الحضارية لا تربطها الا أدنى الروابط بتلك القـارة ، وتدين بحضارتهـا الى الشرق ، الى أهل الملايو وشبه الجزيرة العربية ، وغيرهما من البلاد الآسيوية(٣)

الســـكان الأصليون :

تعيش على أرض افريقية ثلاث مجموعات من الأجناس البشرية ، وهى : الحاميون ، والزنوج ، والبانتو ، وان كانت هناك مجموعة أخرى من جنس آخر اسمه البوشمن ، تعيش فى مناطق منعزلة من افريقية الجنوبية ، فى طريقها الى الانقراض (٤) • ومن المعروف أن الحاميين هم البيض ، أما اصطلاح البانتو فانه لا يشير فى حقيقة الأمر الى جنس ، بل هو اصطلاح لغـوى يســـتخدم باستمرار للدلالة على معظم الافريقيين ، الذين وان تميزوا بسواد البشرة ، فانهم ليسوا دائما فى سواد الزنوج الخلص المستقرين فى أجزاء كثيرة من القارة •

وتنتشر شعوب البانتو فى مساحة واسعة من القارة تقدر بثلثيها ، ويمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام : البانتو الشرقيون ، والبانتو الغربيون ، والبانتو الجنوبيون • ومن الملاحظ أن القسم الجنوبى من البانتو هو وحده الذى يطل على المحيطين الأطلسى والهندى ، كما أن له شواطئه الجنوبية التى تصل بين المحيطين ، وتمر منها السفن التى تدور حول رأس الرجاء الصالح ، أما القسم الشرقى فيطل على المحيط الهندى ، والغربى يطل على المحيط الأطلسى ، ويفصل بين الاثنين الخط الأخدودى المار ببحيرات ادوارد وكيفو وتنجانيقا ، ومن الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا يتجه جنوبا حتى نهر زمبيزى (٥) • وقد تأثر البانتو

---

(٣) Fitzgerald, Africa, pp. 214 — 215.

(٤) جون جنتر : داخل أفريقيا ، حـ١ ص ١٢ ـ ١٣ •

(٥) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ص ٧٦ •

الشرقيون فى كل من أوغندة وتنزانيا وملاوى وزامبيا والقسم الشمالى من موزمبيق ، بالبانتو الغربيون ، بسبب شرب الأخيرين من الساحل الشرقى والسافانا الشمالية ، وأهم عناصر البانتو الغربيون جماعات الباجنده والبانيورو وباتورو وباسوجا ، التى تسكن الشمال المطل على المحيط الهندى · وتتميز تلك الجماعات بلغتها البانتوية المتأثرة تأثرا شديدا باللغة العربية بعد أن اختلطت بالهجرات العربية ، حيث نجد كثيرا من ألفاظ وكلمات هذه اللغة منتشرة عند تلك الجماعات (٦) · وفضلا عن ذلك نلمس بعض وجود الموانع التى وجدت فى غرب افريقية ، حيث عاقت الغابات الاستوائية الزنوج الأصليين المنتشرين فى الأقسام الساحلية من غرب افريقية ، اختلاطهم بأهل الشمال من الحاميين (٧) · ومما يجدر ذكره أن منطقة الصومال المعروفة باسم « قرن افريقية » لا يعتبر أهلها من الزنج ، مهما بلغ لون بشرتهم من سواد ، اذ من المعروف أنهم من أصل حامى قديم (٨) ، دخل شرق افريقية من الأجزاء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، منذ زمن بعيد لا تعيه ذاكرة التاريخ ·

واذا كانت السلالات الزنجية فى الجانب الغربى من القارة الافريقية تتميز بتعدد اللغات ، الى درجة كبيرة بحيث تتجاوز الخمسمائة على أقل تقدير ، فان البانتو بخلاف ذلك لهم « أسرة لغوية واحدة » · ولكن هذا لا يعنى أن المتكلم فى الجزء الجنوبى من القارة ، يستطيع أن يفهم ما يقوله واحد من سكان الجانب الشرقى أو الغربى ، بل معناه أن اللغات التى يتداولها الناس فى جميع الأوطان البانتوية ، متشابهة تشابها كبيرا ، كما تتشابه مثلا لغات الفرنسيين والأسبان والايطاليين ، بوصفها فروعا من اللغة اللاتينية (٩) · ومن أهم خصائص هذه اللغة أنها مقطعية ، أى أن المعنى يكمل أو يغير باضافة مقطع أو استبدال مقطع بآخر ، فعلى سبيل المثال نذكر أن شعب جنده يسمى « موجنده» والوطن الذى يعيش فيه الجنده يسمى « بوجنده » ، والأسان الذى يتكلمون به

---

(٦) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوب الصحراء ، ص ٧٧ ·

(٧) نفس المرجع ، ص ٦٩ ·

(٨) جون جنتر : المرجع السابق ، حـ٢ ص ١٣٤ ·

Fitzgerald, op. cit., p. 465

(٩) محمد عوض محمد : المرجع السابق ، ص ٧١ ·

يسمى « لوجنده » • وهذه المقاطع قد تختلف قليلا فى الجنوب عن الشمال الشرقى أو الغربى ، بحيث يستعمل بدلا من المقطع « با » مقطع آخر مثل « وا » أو « آما » كما هى الحال فى آمازولو ، غير أن المبدأ واحد ، وهو النظام المقطعى الذى تمتاز به لغة البانتو (١٠) • ومعظم لغات البانتو لها نفس الخصائص ، وأصل الكلمات واحد أو متقارب فى كل أرجاء المنطقة الواقعة بين كينيا ومدينة الكاب • فيسمى الرجل أومنتو عند الزولو ، وأومانتو عند الاجاندا ، ومتو عند السواحيليين ، والجمع للرجال أبانتو ، هى نفسها فى كثير من اللغات ، ومنها اشتقت كلمة « بانتو » ذاتها بمعنى كائنات بشرية (الشعب) (١١) • وكيفما كان الأمر ، فان تقارب لغات البانتو يعتبر قوة موحدة هامة ، فى حين أن اللغات الزنجية فى الجانب الآخر من افريقية تختلف تماما عن لغات البانتو ، كما تختلف اللغة الانجليزية مثلا عن اليابانية ، حتى يمكن أن تكون هناك لغة مخالفة تماما عند كل خمسين ميلا •

الوصول المبكر الى ساحل شرق افريقية :

عرفت منطقة ساحل شرق افريقية منذ أربعة آلاف سنة ، لوجودها فى نطاق الحضارات القديمة • فقد أرسل القدماء المصريون سفنهم وأساطيلهم التجارية اليها من البحر الأحمر ، بهدف الحصول على البهارات والمر والعاج والابنوس والأخشاب العطرية التى كانت من مستلزمات الطقوس الدينية فى مصر القديمة ، وقد سجل التاريخ وصول تلك الأساطيل حتى أقاصى بلاد بونت Punt جنوبا ، ويشمل اسم بونت منطقة واسعة من الأراضى المطلة على المحيط الهندى من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، ومدخل مضيق باب المندب ، شرق افريقية حتى سفالة فى موزمبيق (١٢) • ومنا يرى البعض أنه من الخطأ الجسيم تقييد موقع بلاد بونت بمنطقة محددة بعينها فى الوقت الذى يقتضى التعميم ضرورة المرونة فى مدلول كلمة بونت بحيث يجب

---

(١٠) المرجع السابق ، ص ٧٦ •

(١١) Fitzgerald, op. cit., p. 119

جون جنتر : المرجع السابق ، حـ٢ ص ١٥٣ •

(١٢) جوليان : تاريخ أفريقيا ، ص ٧٧ •

أن تشمل منطقة أو مناطق تضيق مساحتها او تتسع ، وتستند هذه المرونة الى حقيقة واضحة يمكن أن نتلمسها فى تاريخ مصر القديمة ، وهى أن الرحلات المصرية الى هذه المنطقة رغم ازدياد الخبرة فى ممارسة الملاحة بالبحر الأحمر كلما حصلت على سلع من جنوب البحر الأحمر ، تعبر عن ذلك بأن وجهتها كانت الى بونت (١٣) ٠

وتؤكد الآثار المصرية أن السفن المصرية قد وصلت الى سواحل شرق افريقية منذ عهد الأسرة الخامسة (٢٥٦٠ ـ ٢٤٢٠ ق٠م) فى عهد ساحورع ، ثم كثرت الرحلات التجارية المصرية الى الساحل فى عهد الأسرة الحادية عشر (٢١٤٣ ـ ١٩٩١ ق٠م) ، فيذكر أحد رؤساء البعثات فى هذا العصر واسمه حننو أنه سافر اليه احدى عشرة مرة ، ثم هناك أشهر ما سجل على الآثار المصرية ، ونعنى بها مناظر الرحلة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ـ ١٣٦٩ق٠م) الى تلك البلاد ، والتى سجلت على جدران معبدها بالدير البحرى (١٤) ٠ وكذلك يذكر المؤرخ هيرودوت (٤٨٤ ـ ٤٢٨ ق٠م) أن رمسيس الثانى (سيزوستريس) قد أوفد حملة بحرية الى ساحل شرق افريقية حوالى سنة ١٤٠٠ ق٠م ، من المحتمل أنها وصلت الى مدغشقر ، وتظهر قمة الازدهار البحرى فى مصر القديمة ، عندما أرسل نيكاو (٦٣٠ ـ ٥٢٧ ق٠م) من الأسرة السادسة والعشرين ، أسطولا بقيادة فينيقيين ، أبحر من خليج السويس ، حاملا معه مؤنا كافية ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل الى منطقة كانت الشمس فى أوجها من على يمينهم ، ويعنى هذا أن الفينيقيين داروا حول رأس الرجاء الصالح ، وأبحروا عائدين شمالا فى المحيط الأطلسى ، وعبروا مضيق جبل طارق الى البحر المتوسط ، حتى وصلوا مصر ثانية ، وقد استغرقت هذه الرحلة ثلاث سنوات (١٥) ٠ ومن الآثار المترتبة

---

(١٣) شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ، الجزء الأول ، العصور القديمة ، ص ٥٧ ـ ٦١ ٠

(١٤) محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، ص ٤٥ ٠

(١٥) Ingrams, Zangibar, its history and its people, pp. 47 — 48.

على اتصال المصريين القدماء بساحل شرق افريقية ، أن تسربت كلمات مصرية الى لغة شرق افريقية ، ويؤكد ذلك أن الكلمة المصرية التى تعنى أسود وهى نحسى Nehesi ، قد اشتقت منها الكلمة السواحيلية Nyeusi (١٦) .

ومن المحتمل أن السفن الاغريقية كانت أول من أبحر جنوبا حول رأس جاردافوى من أجل العاج فى عهد بطليموس الثالث (٢٤٧ ـ ٢٢١ ق.م) ، وفى عام ٤٥ م لاحظ بحار رومانى يدعى هيبالوس انتظام الرياح الموسمية ، وساعد ذلك على معرفة الساحل الشرقى الافريقى أو الجزء الغربى من المحيط الهندى ، ووضعت فيه كتب بالاغريقية واللاتينية (١٧) . ويعتبر كتاب « دليل الملاحة فى البحر الأريثرى » ـ أى الجزء الغربى من المحيط الهندى The periplus of the Erythrean Sea أول وأهم وثيقة أصلية ، تناولت وصفا للمدن والمجتمعات التجارية القائمة على ساحل شرق افريقية . وقد ظهر هذا الكتاب فى الاسكندرية لبحار اغريقى غير معروف فى أواخر القرن الأول الميلادى أو بداية القرن الثانى ، وان كان من المرجح أنه كتب فى عام ١١٠م . وتؤكد المعلومات التى تضمنها هذا الكتاب ولازالت باقية حتى الوقت الحاضر، أن مؤلفه لم ينقل عن غيره ، بل سجل مارآه معتمدا على تجربته الشخصية . ويذكر المؤلف أن السفن الاغريقية ـ الرومانية كانت تجوب مياه المحيط الهندى الغربية لتبادل الحاصلات والبضائع . وأن المدن التجارية لم تكن خاضعة لسلطة مركزية واحدة ، وانما بكل مدينة حاكمها الذى يدير شئونها . وكان من المألوف رؤية التجار والملاحين العرب فى مناطق الساحل الشرقى لافريقية حتى رهابتا Rhapta على ساحل تنجانيقا تقريبا (بالقرب من زنجبار) ، التى كانت خاضعة لحكم أمير معافر فى اليمن ، وقد استقر التجار العرب بين سكان رهابتا الأفارقة ، واختلطوا بهم ، وتحدثوا لغتهم (١٨) . ويذكر المؤلف أيضا أن العرب كانوا يأتون الى أسواق منطقة الساحل الشرقى لافريقية بالحراب والفؤوس والمخارز ومختلف أنواع الزجاج ، فضلا عن كميات

---

(١٦) Ibid., p. 50.

(١٧) Marsh & Kingsnorth, A Hist. of East Africa, P. 17, Ingrams, op. cit., p. 60.

(١٨) Oliver & Mathew (ed.) Hist. of East Africa, Vol 1.,

قليلة من القمح لتأمين رغبة السكان الأصليين ، فى الوقت الذى كـانوا يجلبون من الساحل كميات ضخمة من العاج ووحيد القرن وعظام ظهور السلاحف وزيت النخيـــل (١٩) ٠

ومنذ عهد مؤلف هذا الدليل حتى القرن العاشر الميلادى كانت « العصور المظلمة » فى تاريخ الساحل الشرقىلافريقية ، وبمعنى آخر ، لا تتوفر لدينـا أية معلومات جديدة ذات أهمية عن هذا الساحل الا فى كتابات مؤرخى القرن العاشر ، صحيح أن الجغرافى بطليموس فى القرن الرابـع الميـلادى كتب عن الساحل ، غير أنه لم يضف الا القليل الى ما أورده مؤلف الدليل ، كما أن الرحلة التى قام بها التاجر الاغريقى كوسماس أنديكوبلوستس لم تلق الا قليلا من الضوء على الساحل (٢٠) ٠ ومما يذكر أن القرن الرابع الميلادى شهد ظهور قوة بحرية هائلة ، تمثلت فى الساسانيين الفرس ٠ اذ شجعوا الملاحـــة الفارسية التى لم يقدر لها الازدهار من قبل ، ووصلت سفنهم الى ساحل شرق افريقية ، ويدل على ذلك أن الملك الساسانى نرسى (٢٩٢ ــ ٣٠٢ م) عقد صلات مع « زند أفريك شاه » أى ملك شعب الزنج فى شرق الصومال (٢١) ٠ وفى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢٠ ــ ٤٣٩ م) ، سيطرت فارس على طرق التجارة البحرية فى النصف الغربى من المحيط الهندى ، وظل نفوذها قائمـــا حتى أوائل القرن السابع الميلادى ، عندما سقطت الدولة الفارسية على أيدى الفتوحات العربية ٠ (٢٢) وفضلا عن ذلك ، تؤكد المصادر الصينية وجود تجارة بحرية بين الصين وكل من الهند وشرق افريقية وسوريا فى القرن الخامس الميلادى ، ويبدو أن السفن الصينية كانت تلتقى فى سيلان بالسفن القادمة من غرب المحيط الهندى على اختلاف جنسياتها (٢٣) ٠

---

pp. 94 — 95; Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 17 — 18.

(١٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit, p. 18.

(٢٠) Beachey, The Slave Trade of Eastern Africa, P.3.

(٢١) حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٩١ ــ ٩٢ ٠

(٢٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 98.

(٢٣) حورانى : المرجع السابق ، ص ٩٢ ٠

استقرار العرب فى ساحل شرق افريقية :

كان السبئيون عرب جنوب شبه الجزيرة العربية أول الشعوب العربية التى أتت الى الساحل الشرقى لافريقية بغرض التجارة لا للغزو ، وعلى الرغم من أنهم وفدوا فى اعداد قليلة ، الا أنهم داوموا فى تجارتهم ، واختلطوا بأهل الساحل وتزوجوا منهم ، وأقاموا محطات تجارية ، وفى منتصف الألف سنة التى سبقت ميلاد المسيح عليه السلام ، بدأ الطابع العربى يظهر على طول الساحل ، ولم يفقد هذا الطابع شخصيته المميزة،اذ كان يدعم بالوافدين من جزيرة العرب والخليج العربى (٢٤) • وعلى أثر انهيار سد مأرب سنة ١٢٠ م ، خرجت هجرات عربية من اليمن الى أنحاء مختلفة داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ، ومن ثم استقر جزء منها فى عزانيا (ساحل شرق افريقية) ، حيث المعرفة السابقة بالساحل (٢٥) •

وكان من الطبيعى أن يؤدى ارتياد التجار العرب مناطق ساحل شرق افريقية قبل ظهور الاسلام ، الى استقرار جماعات منهم فى تلك المناطق ، لتسهيل عملياتها التجارية مع السكان الوطنيين • وتأسيسا على ذلك نشأت بعض المستوطنات العربية فى أنحاء متفرقة ، لم تأخذ طابعا سياسيا ، وبعبارة أخرى لم يكن لها أى نفوذ على سكان الساحل • ولاشك أن أولئك التجار لقوا أحسن استقبال من السكان الأصليين ، فطابت اقامتهم معهم ، وانعقدت بينهم صلات مودة وحسن جوار • ويدل على ذلك مخطوطة لمؤلف مجهول بعنوان « تاريخ الزنج » أو « كتاب الزنوج » ، ليس لدينا الدليل على أنها كتبت فى أوائل العصور الوسطى ، فام بتحقيقها الأستاذ تشيرولى Cerulli ونشرها فى مجلة خاصة بالصومال فى سنة ١٩٥٧ م • وتروى هذه المخطوطة أن المهاجرين العرب من جنوب شبه الجزيرة العربية ، قد أقاموا عددا من

---

(٢٤) باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٨٢ ـ ٨٣ •

(٢٥) Ingrams, op. cit., pp. 56 — 58, Pearce, Zanzibar the island Metropolis of Eastern Africa. p. 36.

(٢٦) مجهول المؤلف : تاريخ الزنج ، مجلة نهضة إفريقية ، العدد ١٢ ، ١٣ لسنة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٧ ٦٠ •

Oliver & Mathew, op. cit., pp. 102 — 102.

المستوطنات ـ أو المحلات ـ على الساحل ، فى المنطقة الممتدة من مقديشيو شمالا حتى كلوة جنوبا ، وزادت الروابط بينهم وبين السكان الأصليين ، الى أن ظهر الاسلام فى القرن السابع الميلادى ، فاهتدوا اليه على عهد الخليفة عمر بن الخطـــاب (٢٦) ٠

ولا شك أن العوامل الجغرافية لعبت دورا بالغ الأهمية فى اتساع وتوطيد صلات بلاد العرب بساحل شرق أفريقية قبل ظهور الاسلام وبعده ٠ ويأتى فى مقدمة تلك العوامل قرب موضع شبه الجزيرة العربية من هذا الساحل ٠ كما أن الكثير من حاصلات العراق وفارس والهند والشرق الأقصى المتجهة الى عالم البحر الأبيض المتوسط ، كانت تحمل بالبحر من موانى الخليج العربى وغرب الهند الى الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة العربية ، ثم بعد ذلك الى السويس عبر البحر الأحمر ٠ ولما كانت موانى شبه الجزيرة تقع فى منتصف الطريق من تلك الرحلة البحرية الطويلة ، فقد ترتب على ذلك أن صارت مركزا عظيما emporium لتبادل الحاصلات العالمية الشرقية والغربية (٢٧)٠ هذا فى الوقت الذى ساهم ساحل شرق أفريقية فى نشاط هذه التجارة العالمية بسلعه التى اشتهر بها ، وأهمها الذهب والعاج والعبيد ٠ وفضلا عن ذلك ، ساعدت الرياح الموسمية التى تهب على منطقة المحيط الهندى على تسـهيل الحركة الملاحية بين منطقة الخليج العربى وساحل شرق أفريقية ، اذ مكنت تلك الرياح السفن الشراعية المعروفة بالداوات (٢٧) dhows من القيـام برحلتين منتظمتين فى السنة ، الأولى فى فصل الخريف (ديسمبر) عندما تدفع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية السفن فى اتجاه جنوبى غربى ، فتخـرج من خليج عمان الى المغيط الهندى ، ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقى الذى

---

(٢٧) Hollingsworth, the Asians of East Africa, p. 9.

(٢٨) سفينة الداو أو الداوة ، ذات شراع واحد حمولتهـا مائتـا طن ، وتستعمل فى البحر العربى ، كذلك تطلق هذه التسمية خاصة على السفينة التى كانت تستخدم بسواحل شرقى أفريقية فى تجارة العبيد ، وتعرف بهـذا الاسم أيضا فى سواحل الهند الغربية ، وهذه الأخيرة تتميز بأشرعتها المثلثة الشكل ٠ وقد استخدمت الداوات فى نقل السلع والبضائع والمسافرين ٠ أنظر : درويش الخيلى : السفن الاسلامية على حروف المعجم ، ص ٤٥ ٠

ينحنى فى اتجاه جنوبى غربى ، وبعد شهور قلائل فى فصل الربيع (مارس) تبدأ تلك السفن رحلة العودة الى مواطنها الأصلية فى شبه الجزيرة ، تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، التى تهب على المحيط الهندى فى اتجاه شمالى شرقى • وقد مكنت تلك الرياح الملاحين العرب من الابحار فى أقصر الطرق البحرية العميقة ، واستطاع الهنود الافادة منها ، فأقاموا خطا ملاحيا منتظما يصل بين الشواطىء الغربية للهند وساحل شرق افريقية ، بيد أن نشاطهم كان تجاريا فقط (٢٩) • ولعل الجدير بالذكر هنا أن المستوطنات المبكرة التى أقامها العرب على طول الساحل ، نشأت أول أمرها فوق الجزر التى يفصلها عن الساحل مساحة ضيقة من المياه ، حتى توفر بعض الأمن لمجتمع مستقر ، يستطيع الدفاع عن وجوده اذا أراد السكان الأصليون المنتشرون فى الداخل التعرض له بسوء ، ويؤكد ذلك أن كثيرا من المدن الهامة ، مثل ماندا ولامو وممبسة وكلوة ، شيدت فوق الجزر (٣٠) • وعلى الرغم من ارتفاع درجة الحرارة ارتفاعا كبيرا على ساحل شرق افريقية ، الا أن العرب لم يتأثروا بشدتها ، لأنهم عادة يأتون من منطاق أشد حرارة ، ولذلك لم يستطع الأوربيون عندما وصلوا الى هذا الساحل الاستقرار فى أراضيه ، فيما عدا المناطق البعيدة عن خط الاستواء مثل موزمبيق ، أو الأماكن الداخلية مثل جبال كينيا وتنجانيقا العالية (٣١) • ويرى البعض أن المستقرين العرب والفرس الأوائل قد تعرضوا لمؤثرات المناخ الافريقى ولكنهم بمرور الزمن ألفوا هذا المناخ واكتسبوا مناعة ازدادت فى الأجيال التالية نتيجة التزاوج بين الوافدين والساكن الأصليين (٣٢) •

وبظهور الاسلام أخذت الصلات بين العرب وساحل شرق افريقية طابعا آخر ، يختلف عن الفترة السابقة للاسلام • اذ أخذت الهجرات التى وصلت

---

(٢٩) Hollingsworth, op. cit., p. 9; Marsh & Kingsnorth, p. 17;

صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : زنجبار ، ص ٤ ـ ٥ •

(٣٠) Morgan, op. cit., p. 166.

(٣١) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٥ •

(٣٢) pearce, op. cit., p.

الينا بعض أخبارها تفد الى الساحل ، بغية الاستقرار الدائم • ولا شك أن أحوال الدولة العربية الاسلامية ، خاصة بعد أن انقسم المسلمون الى شيع وفرق ، دفعت بعض الجماعات العربية والفارسية الى الفرار من مواطنهم الى الساحل الشرقى لأفريقية الذى جعلته التجارة مألوفا لديهم ، بعيدا عن متناول أعدائهم ومنافسيهم (٣٣) • ويمكن القول أن ظهور الانقسام فى العالم الاسلامى الى سنة وشيعة ، وما تبع ذلك من حدوث القلاقل والمنازعات خاصة فى الجزء الغربى من آسيا ، قد أدى بالعديد من المسلمين الى البحث عن الأمن والسلام فى أوطان بعيدة عن مسرح المنازعات ، وكان أبرز تلك الأوطان ساحل شرق افريقية لسهولة الوصول اليه من ناحية ، ولما كان عليه من ثروات ومحاصيل ألغرت الوافدين عليه من آسيا ، مثلما حدث فيما بعد عندما هاجر الأوربيون الى العالم الجديد أو أمريكا من ناحية أخرى (٣٤) •

ويرجح البعض أن أول هجرة الى ساحل شرق افريقية بعد ظهور الاسلام ، ترجع الى عشرين عاما من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (٦٣٠ م) ، عندما اندفع العرب فى فتوحاتهم نحو العراق وفارس والشام ومصر ، والتى لم يشترك فيها عرب عمان نتيجة لانعزال اقليمهم ، فاتجهوا الى منطقة شرق افريقية ، التى هيأت العوامل الجغرافية سهولة الاتصال بها (٣٥) • ذلك أن عمان تقع فى الركن الشمالى الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، وتمثل نتوءا فى المحيط الهندى ، وتقع الصحراء العربية خلفها ، مما جعل أهلها يتجهون صوب البحر (٣٦) • وفى رواية أن أولى الهجرات العربية الى ساحل شرق افريقية بعد ظهور الاسلام كانت فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) ، وفى هذا الصدد يروى المؤلف المجهول صاحب كتاب « تاريخ الزنج » (٣٧) • أن عبد الملك أرسل جماعة من أهل الشام بزعامة أمير يدعى موسى بن زبير الخثعمى فى عام ٧٥ هـ (٦٩٤ م) ، للاقامة فى

---

(٣٣) Marsh & Kingsnorth, op. cit. p. 21

(٣٤) Pearce, op. cit., p. 38.

(٣٥) صلاح العقاد ، جمال زكريا : زنجبار ، ص ٥ •

(٣٦) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p.21

(٣٧) مجلة نهضة أفريقية ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٦٠ •

له طائعين من أولهم الى آخرهم » • وتنسب هذه الرواية الى المهاجرين الشوام مناطق الساحل الشرقى لافريقية ، حيث دعا الى الاسلام ، «وكان أهل البلاد تأسيس مدينة لامو ، فضلا عن أن الرواية المحلية التى تتعلق بتاريخ مدينة بات (بيت) تفيد بأن هؤلاء المهاجرين قد شيدوا على طول الساحل خمسا وثلاثين مدينة فى عام ٧٧ هـ (٦٩٦ م) (٣٨) • على أن عددا كبيرا من المؤرخين لايؤيد ماذهبت اليه الروايات المحلية حول هذه الهجرة.ويذكرون أن أول هجرة جماعية هى التى قام بها فريق من أهل عمان فى القرن السابع الميلادى • وبداية كانت أحوال الدولة العربية الاسلامية مستقرة على عهد الخليفتين أبى بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، ثم أتى من بعدهما الخليفتان عثمان وعلى • ولما صار الأمر لمعاوية ابن أبى سفيان ، وقامت الدولة الأموية فى سنة ٤١ هـ (٦٦١م) لـم يكـن لمعاوية أى نفوذ فى عمان ، حتى تولى الخلافة عبد الملك بن مروان ، واستخدم على العراق عامله الحجاج بن يوسف الثقفى • ومما يذكر أن آل الجلنـــدى تمتعوا باستقلال كبير فى عمان فى بداية العصر الأموى ، فكانوا يسيرون أمورها دون الرجوع الى الخلافة فى دمشق ، ومع أن عمان كانت تابعة لأمير العراق ، الا أن المصادر لم تذكر اسم أى وال عليها ، الأمر الذى يدل على أن الخلفاء لم يعينوا أحدا عليها ، وأن آل الجلندى ظلوا يديرون شئونها ، غير أن عدم حدوث منازعات بين الخلافة وعمان يدل أيضا على أن آل الجلندى مع ما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، لم يقوموا بأعمال تظهر معارضتهم للخلافة الأموية ، أو خروجهم عليها (٣٩) • غير أنه لما اضطربت أحوال الدولة الأموية بعـد وفـاة يزيد ، وقويت شوكة الخوارج فى شرقى شبه الجزيرة العربية ، وسيطر نجدة بن عامر الحنفى من الخوارج على البحرين ، أرسل جيشا الى عمان بقيادة عطية بن الأسود الحنفى ، وكان يحكم عمان آنذاك عباد بن عبد الله بن الجلندى ويعاونه ابناه سعيد وسليمان ، فقتل عباد واستولى عليها ، وبذلك صارت عمان تحت سيطرة الخوارج الذين كانوا من أعنف خصوم الأمويين • ويرجع اهتمـــام

---

(٣٨) Oliver & Mathew, op. cit., p. 102

(٣٩) عبد الرحمن عبد الكريم العانى : عمان فى العصور الاسلامية الأولى ، ودور أهلها فى المنطقة الشرقية من الخليج العربى وفى الملاحة والتجارة الاسلامية، ص ٨٦ ــ ٨٧ •

الخوارج بعمان الى طبيعتها الجبلية وامتداد الصحارى الجرداء فى غربها كما ذكرنا ، مما يؤهلها لأن تكون ملجأ حصينا لهم يلوذون به فى حالة الخطر والهجوم ، فضلا عن أن وقوع عمان على الخليج العربى يعطيها أهمية تجارية وعسكرية • ومما ساعد نجدة بن عامر على الاستيلاء على عمان أحوال الدولة العربية الاسلامية ، فالانقسامات والمشاكل الداخلية فى العراق قد أضعفت من حركة عبد الله بن الزبير ، فى الوقت الذى لم يكن يهم الأمويين الا القضاء على تلك الحركة • غير أن أهل عمان فيما يبدو لم يؤيدوا حكم الخوارج ، وظلوا موالين لآل الجلندى ، فلما عاد عطية الى البحرين ، بعد أن أمضى فى عمان بضعة أشهر ، استطاع سعيد وسليمان بمساندة أهل عمان قتل أبى القاسم نائب عطية فى عمان (٤٠) •

وعلى أية حال ، بعد أن قضى الأمويون على مناوئيهم واستعادوا سيطرتهم على الأقاليم الاسلامية فى عهد عبد الملك بن مروان ، اهتموا باستعادة نفوذهم فى عمان • وقد ظل أهل عمان بقيادة سليمان وسعيد بن عباد الجلندى يقاتلون الأمويين ، الى أن أرسل اليهما الحجاج قوات بحرية وبرية عظيمة ، استطاعت الحاق الهزيمة بهما والقضاء على نفوذ أهل عمان ، ومن الأسباب التى أدت الى هزيمة أهل عمان ، ذلك الأسلوب الذى لجأ اليه عبد الملك بن مروان ، اذ اتبع سياسة قبلية فى شبه الجزيرة العربية ، واستعان ببعض القبائل على البعض الآخر ، وبمعنى آخر استعان بقبائل نزار ضد قبيلة الأزد العمانية ، وفى المعارك العنيفة التى دارت فى عمان بين هذين الفريقين انهزم الأزد تحت قيادة سليمان وسعيد الجلنديين ، «فاستشعرا العجز» فحملا ذراريهما وأسوادهما ومن معهما من قومهما ، ولحقا ببلد من بلدان الزنج (ساحل شرق افريقية) (٤١) ، حيث انتشر الاسلام بفضلهم فى كثير من أنحاء الساحل •

---

(٤٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، حـ٤ ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣ ، عبد الرحمن العانى : المرجع السابق ، ص ٨٧ ــ ٨٨ •

(٤١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، حـ٦ ، ص١٧٠ ــ ١٧٢ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حـ٤ ، ص ٢٠٥ ، السالمى : تحفة الأعيان فى سيرة أهل عمان ، حـ١ ص ٥١ ــ ٥٩ ، السيابى : اسعاف الأعيان فى أنساب أهل عمان ، ص ٧٤ ــ ٧٥ ، مجهول المؤلف : قصص وأخبار جرت فى عمان ، ص ٤١ ــ ٤٢ ، ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ، ٢١٣ ــ ٢١٦ •

والواقع أن هجرة العمانيين الى ساحل شرق افريقية تعتبر حدثا هاما فى تاريخه ، اذ توضح لنا أن العمانيين لفترة طويلة من « العصور المظلمة » التى اكتنفت ذلك الساحل ، كانوا يترددون عليه ، وأنه كان معروفـــا تماما لديهم وخاضعا لنفوذهم الى حد ما ، ولهذا السبب لم يلجأ الأخوان الجلندیاتى الى أى مكان آخر فى شبه الجزيرة العربية ، وآثرا التوجه الى الساحل ليقينهما من أنهما سينالا استقبالا طيبا (٤٢) · وقد ألقى الأستاذ هتشنز Hichens المزيد من الضوء على تلك الهجرة حين عثر على كتاب ألفه شيبو بن فرج بن حمد الباقرى وعنوانه أخبار لامو ، يعرض فيه لتاريخ هـذا البـلد والهجرات الأولى التى وفدت اليه ، فقد ذكر أن تلك الهجرة الأولى استقرت فى مدينـة لامو شمال ممبسة ، وكانت السبب فى ظهور أمارة اسلامية فى ذلك الوقت ، وشغلت تلك الهجرة مكانة جديرة بالاعتبار ، بدليل أن حفيد هؤلاء العمانيين ويدعى الحاج سعيد استطاع أن يؤلف حكومة شورى فى مستهل القرن الثـامن الميلادى ، سارت على تعاليم مذهب الخوارج الاباضية ، الذى انتشر بين أزد عمان · ويذكر صاحب تاريخ لامو أيضا أن المهاجرين من الشام والهنـد بمدينة حدبو وأهل مدينة ويونى ، قد اختاروا سعيدا زعيما عليهم ، فرسم لهم أن تقسم المدينة الى أحياء صغرى ، لكل منها شيخها ، وشيوخ الأحيـاء كلهم يؤلفون مجلسا استشاريا يشاركه أعباء المسئولية ، وأصبح لكل مواطن حق اللجوء الى هذا المجلس طالبا انصافه اذا مسه سوء ، وبذلك كانت امارة لامو هذه أقدم الامارات العربية الاسلامية ظهورا فى ساحل شرق افريقية (٤٣) ·

وتتبعت هذه الهجرة هجرة عربية من اليمن جاءت الى ساحل شرق افريقية فى عام ١٢٢ هـ (٧٣٩) ، وفى هذه المرة كانت لأسباب دينية ، اذ حدث انقسام فى صفوف الشيعة ، ولقى الزيدية الاضطهاد على أيدى الأمويين · ويرى البعض أن سلالة زيد ـ أى الزيديين ـ كانوا أول من انحدر الى الساحل،وقد استند فى ذلك الى احد الكتب التاريخية العربية ، الذى عثر عليه البرتغاليون فى مدينة

---

(٤٢) Ingrams, op. cit., p. 73

(٤٣) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨ ، عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، ص ٧٧ ·

كلوة حين اجتاحها دون فرنسيسكوداميدا فى سنة ١٥٠٥ م ، جاء به أن جماعة وفدت على هذا الساحل ، كان سببها اضطهاد الزيدية على أيدى الأمويين ، ويستدل على ذلك بأن طائفة من العرب فى افريقية كانت تسمى « بالأموزيديج» Emozaidij ، وهى تحريف سواحيلى لكلمة الزيدية ، وليس ببعيد أن زيدا الذى انتسبت اليه تلك الجماعة هو زيد بن على حفيد الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان قد نادى بأنه الامام المهدى فى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ ـ ٧٤٣ م) ، وأشعل نار الثورة بين الشيعة ، ولكنه هزم وقتل فى سنة ١٢٢ هـ ، مما أدى الى فرار جماعة من أتباعه الى الساحل الأفريقى الشرقى (٤٤) وكان أن استقرت تلك الجماعة فى منطقة شنجوايا Shungwaya على الساحل بالقرب من مقديشيو ، وسرعان ما حصلت على بعض النفوذ (٤٥) .

ويبدو أن تلك الهجرة ظلت محتفظة بنفوذها على الساحل ، حتى أتتها فيما يبدو فى سنة ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م) جماعة عربيـــة ســنية المذهب ، وفيرة العدد ، أصلها من مدينة مجاورة للأحساء بمنطقة الخليج العربى ، خرجت فى ثلاث سفن تحت قيادة سبعة اخوة ، فرارا من اســتبداد حــاكم الأحســـاء ، واستقرت تلك الجماعة السنية فى مقديشيو وبراوة اللتان أصبحتا عاصمتين لدولة هامة ، اســـتطاعت أن تغزو الشريط الســـاحلى كله حتى ممبســـة جنوبا (٤٦) . أما الزيدية خصوم تلك الجماعة فى المذهب ، فقد رفضوا الاذعان لها ، ومن ثم هاجروا الى الداخل ، واختلطوا بالسكان الأصليين ، وكونـوا علاقات قوية معهم ، كما قاموا بدور التجار المتجولين فى الداخل . حيث كانوا يجمعون المحاصيل والسلع ويرسلونها الى الساحل لبيعها ، هذا ويعتقـد الكولونيل رجبى Rigby أن جماعة الأحساء السنية كانت من قبيلة الحارث العربية ، اذ من المعروف أنها استقرت فى زنجبار فى سنة ٣١٢هـ(٩٢٤م) (٤٧)

---

(٤٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ، جيان : وثائق تاريخية وجغرافية ، ص ٧١ ـ ٧٢ .

(٤٥) Ingrams, op. cit., p. 75.

(٤٦) Oliver & Mathew, op. cit., vol. I , pp. 103 — 104; Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 21.

(٤٧) Ingrams, op. cit., pp. 75 — 76.

ويستفاد من تاريخ ساحل شرق افريقية منذ القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثالث عشر، أن مناطق هذا الساحل صارت مألوفة تماما لعرب شبه الجزيرة العربية والخليج العربى · وفى خلال تلك الفترة كان معظم الوافدين الى الساحل من أهل عمان،وذلك لما سبق أن ذكرناه من أن الصحراء تحدها من الغرب، والبحر من الجنوب ووالشرق، وليس لها وسيلة للرزق الا عالم البحار الواسع حيث الملاحة والتجارة البحرية (٤٨) · وعلى أية حال كانت سفن عمان وسيراف التجارية تتردد على ساحل شرق افريقية فى أوائل القرن العاشر الميلادى، ويتضح من وصف المسعودى للحركة الملاحية بين عمان وهذا الساحل أن عرب الازد والسيرافيين، كانوا على دراية تامة بمياه المحيط الهندى، وأصحاب خبرة بها · وقد وصف المسعودى (٤٩) مياه ذلك المحيط وسكان ساحل شرق افريقية قائلا : «وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج، وفى هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج، والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربرى، وهم يعرفونه ببحر بربرى وبلاد جفونى، ··· وموجه عظيم كالجبال الشواهق، فانه موج أعمى يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض مايكون من الاودية، لاينكسر موجه ولايظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون، وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب الازد ··· وينتهى هؤلاء فى بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على

---

(٤٨) Wilson, the Persian Gulf, p. 77;

جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، ص ٨٣ ·

(٤٩) «مروج الذهب ومعادن الجوهر ، حـ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ·

(٥٠) يرجع جيان (وثائق تاريخية ، ص ٨٠ ـ ٨١) أن المقصود بجزيرة قنبلو (قنبلة) هى احدى جزر القمر ، وخاصة الجزيرة الغربية منها ، وذلك لخصوبتها ووفرة أخشابها الصالحة لبناء السفن وترميمها ، وانتشار أشجار النارجيل التى تؤخذ لعمل الحبال الصالحة للملاحة · أما حورانى (العرب والملاحة ، هامش ص ٢٣١) فقد عرض للاراء التى دارت حول مكان قنبلة ، ومن بينها الرأى القائل أن قنبلة هى جزيرة بمبا القريبة من ساحل زنجبار · ويعتقد شاخت Schacht أن قنبلة هى جزيرة زنجبار ، أنظر :
Oliver & Mathew, op. cit., vol. I, p. 106.

ماذكرنا، والى بلاد سفالة والواق واق (٥١) من أقاصى أرض الزنج، ... ويقطع هذا البحر السيرافيون، وهم أرباب المراكب، مثل محمد بن الرويدم السيرافى، وجوهر بن أحمد، وهو المعروف بابن سيرة، وفى هذا البحر تلف ومن كان معه فى مركبه، وآخر مرة ركبت فيه فى سنة أربع وثلاثمائة (٩١٧م) من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان، وذلك فى مركب أحمد وعبد الصمد أخوى عبد الرحيم بن جعفر السفرى بهيكان وهى محلة من سيراف وفيه غرقا فى مركبهما وجميع من كان معهما، وكان ركوبى فيه أخيرا والامير على عمان أحمد بن هلال ...، وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابنى فيها من الاهوال مالا أحصيه كثرة، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج ».

وثمة قصة تدعو تفاصيل أحداثها الى الدهشة، يبدو أنها كتبت فى أوائل القرن العاشر الميلادى ، وهى تصور لنا أن زعيم احدى قبائل منطقة ساحل شرق افريقية قد ساهم فى نشر الاسلام هناك . وتبدأ أحداث تلك القصة فى سنة ٣١١هـ (٩٢٣م)، «عندما خرج بعض التجار فى سفينة من عمان، فألقت بهم الريح بأرض الزنج بالقرب من مدينة سفالة، وبها قوم يأكلون لحم البشر، وهناك توقع رجال السفينة خطرا محققا، ولكن حدث ماخالف ظنهم، اذ استقبلهم الملك بمودة وترحاب ، ومكنهم من بيع مايحملونه من بضائع بشروط مربحة، دون أن يأخذ منهم مكوسا . بيد أنهم قابلوا الاحسان

---

(٥١) يرى فران أن هناك واقوقين : واقواق الجنوب وهى مدغشقر وشرق أفريقية جنوب سفالة ، وواقواق الصين وهى جزيرة الزابج أى سومطرة ، التى كان أهلها على علم بجزر الجزء الغربى من المحيط الهندى وسواحله ، وسكنوا مدغشقر فى عصر متقدم ، علاوة على أن لهجة مدغشقر متفرعة من لهجات الملايو . ويؤيد حورانى صحة الحجج التى يسوقها فران فيما يتعلق بواقواق الجنوب. أما بالنسبة لواقواق الصين فهى فى رأيه بعيدة عن الصحة ، لأن العرب كانوا يعرفون سومطرة جيدا ويسمونها الزابج ، ولو كانت الواقواق هى الزابج لنص عليها الجغرافيون العرب . ويرى حورانى أن العرب لم يكونوا على بينة من الواقواق التى تصدق على جزر اليابان . ويؤيد ذلك أن اسم اليابان فى لهجة كانتون الصينية وو ـ كوك وهو اسم قريب من الواقواق . انظر : حورانى : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ .

بالاساءة اذ عندما حان وقت سفرهم استأذنوا الملك فى السفر، فأذن لهم، وعندما اعتلى ظهر سفينتهم هو وسبعة من حاشيته لتوديعهم أوثقوهم وحملوهم معهم إلى عمان رقيقا • وشاءت الاقدار أن تطوح الريح بهؤلاء التجار الى نفس المواضع بعد خمس سنوات، فعرفهم الاهالى وألقوا القبض عليهم، وساقوهم الى الملك، فانتابتهم الدهشة الشديدة حينما اكتشفوا أنه نفس الملك الذى عاملهم معاملة كريمة من قبل، وتجلى نبل أخلاقه عندما عاملهم برفق هذه المرة • وقص عليهم ماحدث له، كيف أخذ رقيقا الى البصرة حيث علمه مولاه الصلاة والصوم وقراءة سور من القرآن الكريم، ثم غافل مولاه ولحق بقافلة للحجاج، وبعد أن أدى مناسك الحج خشى أن يرجع الى مولاه فيعاقبه، ولذلك توجه الى القاهرة، وصعد فى النيل، حتى انتهى به المطاف عائدا الى بلاده، بعد أن عانى المشقات والاهوال • ولم يلبث أن علم قومه تعاليم الدين الاسلامى وفروضه، ثم ختم قصته بالعفو عن أولئك التجار لانهم كانوا سببا فى صلاح دينه ودنياه»•(٥٢)

وكان لظهور القرامطة أن حدثت قلاقل واضطرابات فى شبه الجزيرة العربية • ذلك أن عمان كانت من بين الولايات الاسلامية التى تدين بالطاعة للعباسيين فى أواخر القرن الثالث الهجرى • وقد تزعم الحكم فيها فى عهد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢) بنو شامة بن لؤى بن غالب ، ففتح محمد بن القاسم الشامى عمان بمعاونة هذا الخليفة ثم وليها من قبله ، على أن الضعف والانحلال ما لبث أن أصاب عمان بسبب المنازعات التى قامت بين أبناء محمد بن القاسم سنة ٣٠٥ هـ ، وظل الاضطراب سائدا فيها حتى تغلب عليها سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) أبو طاهر القرمطى (٥٣) • وقد جاء القرامطة الى عمان فى عهد امامها عمر بن محمد بن مطرف ، « فاعتزل عن بيت الامامة ، ورجع القرامطة الى البحرين ، فلم يرجع عمر الى بيت الامامة » (٥٤) • وباعتزاله أعقب ذلك فترة شغور ، ثم عقد أهالى عمان

---

(٥٢) النويرى الاسكندرانى : كتاب الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية فى الاسكندرية، حـ٢ ص ١٢٢ ١٣٠

(٥٣) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، ص ٥١ •

الإمامة لمحمد بن يزيد الكندى ، بيد أن الخلافة العباسية لم تلبث أن تغلبت على عمان ، وهرب محمد بن يزيد منها الى اليمن أو زنجبار (٥٥) • على أن النفوذ العباسى لم يلبث أن ضعف أمره فى عمان ، وسادتها الفتن والاضطراب ، خاصة أن الدولة الفاطمية فى مصر الهجرى (التاسع الميلادى) فى شبه الجزيرة العربية ، ليتيسر لها بذلك اضعاف الخلافة العباسية والقضاء عليها ، الأمر الذى لانستبعد معه أن كثيرا من أهالى عمان وجدوا فى ساحل شرق أفريقية الملاذ والأمن والاستقرار •

والواقع أنه يمكننا أن نربط بين الوضع العام فى العالم الاسلامى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وبين تتابع الهجرات والقادمين الى منطقة ساحل شرق افريقية • فمنذ مستهل هذا القرن ازداد ضعف الدولة العباسية فى بغداد ، وتحطم رخاؤها بسب ازدياد شوكة القواد من الأتراك ، وتفاقم خطر الدول المستقلة ، وانقسام المسلمين الى شيع وطوائف ، وليس أدل على مابلغه العالم الاسلامى من ضعف ووهن ابان ذلك القرن وجود ثلاث خلافات • الخلافة العباسية فى بغداد ، والخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب ثم فى مصر ، والخلافة الأموية فى الأندلس • ونتيجة لذلك ، فان بعض الجماعات الاسلامية التى هالها تمزق العالم الاسلامى آثرت الابتعاد عن أحداثه ملتمسة النجاة ، فهبطت من بين ما هبطت ساحل شرق أفريقية ، متخذة منه دار غربة ووطنا ، ووجهت اهتمامها الى تأسيس محلات دائمة ودويلات هيأتها الظروف الجغرافية • وعلى هذا الأساس ظهر العديد من المدن العربية الاسلامية على طول الشريط الساحلى• ويؤكد ذلك وصف المسعودى (٥٦) • الذى زار منطقة الساحل الشرقى الافريقى فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، فقد ذكر أن الامارات العربية تمتد من مقديشيو شمالا ، حتى سفالة جنوبا •

---

(٥٤) ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين ، ص٢٣٨ ، مجهول المؤلف : قصص وأخبار جرت فى عمان ، ص ٦٣ •

(٥٥) Miles, the Countries and Tribes of the Persian Gulf, pp. 94 — 97;

ابن رزيق : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، مجهول المؤلف : المرجع السابق ، ص ٦٥ •

(٥٦) مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، حـ١ ص ١٢٣ ـ ١٢٥ •

ثم نأتى الى هجرة جماعية فارسية ، وفدت الى ساحل شرق أفريقية قادمة من شيراز الواقعة على الساحل الشرقى للخليج العربى ، بزعامة الحسن ابن على وأبنائه الستة طبقا للرواية العربية ، أو على بن الحسن طبقا لرواية المؤرخ البرتغالى دى باروس J. de Barros ، وذلك فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى · (٥٧) ويرى هتشنز استنادا الى بعض التواريخ المحلية أن تلك الهجرة حدثت بين عامى ١٠٥٥ و ١١٠٠ م ، على أثر فرار الشـــيعة الشيرازيين من وجه طغرل بك السلجوقى ، الذى استولى على فارس (٥٨) ، ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) · فى حين يرى البعض الآخر أن تلك الهجرة تمت فى أواخر القرن الثانى عشر ، اعتمادا على أنه عندما رحل الحسن بن على وجماعته الشيرازيون الى مدينة كلوة وجدوها آهلة بالمهاجرين والمستوطنين (٥٩) ·

وعلى أية حال ، تذكر الرواية العربية التى أوردها صاحب كتاب « السلوة فى أخبار كلوة » ،أن أول من وصل الى كلوة كانت جماعة من المهاجرين من أهل شيراز فى سبعة مراكب بزعامة سلطانهم الحسن بن على وأولاده الستة · وقد قيل عن سبب خروجه أنه رأى يوما فأرة خرطومها من حديد وهى تقرض الجدران ، فتشاءم بذلك على خراب بلاده · وبعد أن شاور أولاده فى هذا الأمر رأى الانتقال بهم الى بلد آخر · وتجهز السلطان بأهل بيته وبعض أمرائه ووزرائه ، وركبوا فى سبعة مراكب ، الى أن وصلوا الى ساحل شرق افريقية · وهناك تفرقت المراكب ، فوصل أحدها الى كلوة بقيادة الحسن بن على ، فأعجبته، ووجد بها رجلا من المسلمين مع من تبعه من ذويه وأولاده ، وعلم منه أن صاحب الجزيرة أحد الكفار ، فرغب فى شرائها ، وتقابل مع صاحب الجزيرة ، وكان المسلم ترجمانا بينهم ، فوافق على بيعها بشرط أن يدير الجزيرة كلها بثياب ملونة ، فقبل الحسن هذا الشرط وأعطاه ثمنها ثيابا أدار بها الجزيرة كلها (٦٠)

---

(٥٧) Oliver & Mathew, op. cit., vol. I, pp. 102 — 103.

(٥٨) جمال زكريا : الأصول التاريخية ، ص ٦٩ ·

(٥٩) Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 21 — 22.

(٦٠) السلوة فى أخبار كلوة ، من كتاب جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، ص ٣٧ ـ ٤١ ·

أما المؤرخ البرتغالى دى باروس فقد تناول أسباب هذه الهجرة بصورة أخرى ، اذ يروى أن مدينة شيراز كانت تحت حكم ملك يدعى الحسن ، وبعد وفاته ترك سبعة أبناء ، كان أحدهم وهو المسمى بعلى من أم جارية زنجية ، بينما كانت أم الستة الآخرين تمت بالصلة الى بعض أمراء فارس • ولما كان على من أم جارية ، فقد احتقره اخوته ، وعيروه بوضاعة أصله ، وعاملوه معاملة قاسية جعلته يقرر الهجرة الى ساحل شرق افريقية مع أبنائه وذويه • فأبحر من جزيرة هرمز ، ورسا فى مقديشيو أول الأمر ، ولكنه تجنبها بعد أن تبين له أن سادتها من العرب جماعة الأحساء السنيين ، الذين يخالفون مذهب الفرس الشيعى ، وانحدر بسفنه جنوبا بطول الساحل ، حتى نزل فى كلوة فأعجبته خصوبة أرضها ووفرة مياهها ، فاتخذها مقرا له ، وصارت عاصمة لدولة عرفت آنذاك بدولة الزنج ، كان لها الفضل فى توحيد معظم المراكز الاسلامية على الساحل ، من بمبا فى الشمال حتى سفالة فى الجنوب ، وتوطدت صلتها بزنجبار ، ولم يستعص عليها سوى مقديشو (٦١) • ومن الآثار المترتبة على تلك الدولة انتشار الاسلام بين الأفارقة الأصليين ، خاصة فى بمبا ومدغشقر وجزر القمر (جزائر الكومور) ، كما كان لها الفضل فى بناء المساجد الكبيرة المبنية بالحجارة ، ففى كيز يمكازىKizimkazi الواقعة فى جنوب جزيرة زنجبار ، يقوم مسجد قديم ، يقع فوق محرابه نقش بالخط الكوفى نصه : « بأمر الشيخ السيد أبى عمران الحسن بن محمد ، أطال الله حياته المديدة ، اللهم اقض على أعدائه ، تم بناء هذا المسجد فى اليوم الأول من ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة (الموافق ٢٧ يوليو سنة ١١٠٧ م) (٦٢) •

ولما كانت سلطنة كلوة – أو دولة الزنج – شيعية المذهب ، فقد كان من المتوقع أن تفرض تعاليم مذهبها على الأفارقة الأصليين ، وتعمل على نشره بينهم • ولكن هذا المذهب لم يكتب له البقاء طويلا،فى الوقت الذى لم يقبل الأفارقة عليه فى حماس تلقائى • ومما يدل على ذلك أن الرحالة ابن بطوطة

---

(٦١) جيان : وثائق تاريخية ، ص ٨٤ – ٨٦ ، أرنولد : الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٧٨ •

(٦٢) Oliver & Mathew, op. cit., p. 107;
عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقية ، ص ٨٢ •

عندما زار الأمارات الاسلامية فى شرق افريقية فى عام ١٣٣١م، وصف مظاهر العمران التى سادت فى كلوة قائلا : « ومدينة كلوة من أحسن المدن وأتقنهـــا عمارة ، وكلها بالخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم فى بـــر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب » (٦٣) · وعلى الرغم من أن سلطنة كلوة ترجع الى أصل فارسى ، الا أنه لم ينته القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الا وكانت مدن الساحل قد استكملت مقوماتها وسماتها العربية ، اذ ساعدت الهجرات العربية المتوالية على طمس معالمها الفارسية واستحالت الى مدن عربية صرفة (٦٤) ·

وشهدت كلوة فى القرن الثانى عشر ازدهارا ورخاء ، خاصة بعد أن أطاحت بسيطرة مقديشيو فى سفالة · اذ كانت مقديشيو تحصل على الذهب من سفالة، فرأى داود بن سليمان سلطان كلوة (١١٣٠ ـ ١١٧٠م) أن كلوة أحق به ، وبذلك قضى على تجارة الذهب فى مقديشيو · وتطلب ازدهار النشاط التجارى فى كلوة الحاجة الى سك نقود تقوم عليها المبادلات التجارية ، فلجأ سلاطينها الى سك مجموعة من العملات النحاسية جرى التداول بها منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، حتى نهاية القرن الخامس عشر (٦٥) ·

على أن ازدهار سلطنة كلوة لم يتجـــاوز منتصف القـرن الرابـع عشر الميلادى ، بسبب المنازعات التى قامت بينها وبين مدن الساحل من جهة ، وظهور مدن أخرى قوية أخذت تتوسع على حسابها من جهة أخرى · ورغم أن كلوة فقدت تماسكها ، وذهبت أهميتها ، الا أنها لاتزال تسيطر على الجزء الجنوبى من الساحل الشرقى لافريقية ، حتى قبل أن يوشك القرن الخامس عشر على الانتهاء ، اذ عندما أرسى فاسكودى جاما سفنه فى مياه موزمبيق فى أوائل مارس سنة ١٤٩٨ ، وجد أن حاكمها تابعا لسلطان كلوة ، كما علم أن موزمبيق أشهر ثغور مناطق الساحل ، حيث كانت السفن تفد اليها من شـبه

---

(٦٣) الرحلة ، حـ١ ص ٢٠٠ ·

(٦٤) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٤٩ ·

(٦٥) Trimingham, Islam in East Africa, p. 12; Oliver & Mathew, op. cit., p. 112.

الجزيرة العربية والهند ، جالبة اليها مختلف السلع والبضائع الوفيرة (٦٦)٠

ومما ساعد على أفول نجم سلطنة كلوة ارتفاع شأن حكام جزيرة بات (بيت) ، وهى احدى جزر أرخبيل لامو الواقع شمال ساحل كينيا ٠ ومن المعروف أن أولئك الحكام ينتمون الى قبيلة نبهان العمانية ٠ وقد ظهرت تلك القبيلة فى عمان عندما استولت على تقاليد الحكم بها فى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ودانت لها معظم الأجزاء الداخلية ، الى أن عادت الامامة الاباضية مرة أخرى سنة ١٤٢٩ م ، ومع ذلك ظلت تلك القبيلة تمارس نفوذا كبيرا طوال قرنين آخرين ، الى أن ظهر الأئمة من أسرة اليعاربة سنة ١٦٢٤ ، فزال نفوذها (٦٧) ٠

وتذكر الروايات التاريخية المتعلقة بجزيرة بات ، أن سليمان بن سليمان ابن مظفر النبهانى صاحب عمان ، قد أتى الى هذه الجزيرة فى هجرة عربية كبيرة سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٤ م) ، فاستقبله العرب المقيمون بها ، وكان معظمهم من اقليم عمان ، استقبالا طيبا ٠ وما لبث الأمير النبهانى أن تزوج من ابنة اسحق حاكم الجزيرة ، من سلالة الشيرازيين حكام كلوة ، وبعد اتمام الزواج تنازل اسحق عن الحكم لصهره ، فصار أميرها الشرعى ، وتأسس حكم الأسرة النبهانية فى تلك الجزيرة ٠ ويبدو أن النبهانيين أخذوا يمارسون سلطتهم أول الأمر ، شأنهم فى ذلك شأن حاكم أية مدينة من المدن الواقعة بين مقديشيو وكلوة (٦٨) ٠ بيد أنهم فى حوالى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى صاروا يمثلون قوة كبرى ، فعلى عهد محمد الثانى بن أحمد (١٢٩١ ــ ١٣٣١) ــ وهو أول حاكم حصل على لقب فومو Fumo ــ اتسعت بات شمالا ، واستطاع هذا الحاكم أن يضم اليه مدينتى شانجا وفازا وهما من مدن جزيرة بات ، فضلا عن بعض الجزر المجاورة ، ثم عمل على توسيع دائرة نفوذه تجاه الشمال، فأخذ الجزية من المدن حتى براوة ومقديشيو ٠ أما ابنه عمر (١٣٣١ ــ ١٣٤٧) ،

---

(٦٦) Morgan, op. cit., p. 199;
جيان : وثائق تاريخية ، ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ ٠
عبد الرحمن زكى : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ــ ١٢٤ ٠

(٦٧) Wilson, op. cit., p. 82

(٦٨) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص٤٠٠ ــ ٤٠١ ، جمال زكريا: المرجع السابق ، ص ٦١ ٠

فقد وجه اهتمامه الى مد نفوذه جنوبا ، فاستولى على مدن جزيرة ماندا الثلاث ، وهى ماندا وتاكا وكيناو (٦٩) ، ومدن جزيرة لامو المجاورة ، ومالندى ، ثم دخل فى حرب مع سلطنة كلوة ، انتهت الى استيلائه على جزر كريمبا فى الجنوب • ومن المحتمل أن أبناء عمر استولوا على سونجو منارا التى تقع جنوب كلوة مباشرة ، واتخذوا منها قاعدة ، تحكمت فى تجارة ميناء كلوة • ومن المحتمل أيضا أن سونجو منارا صارت العاصمة الجنوبية لممتلكات الأسرة النبهانية ، فقد بنى بها مسجدا كبيرا يرجع تاريخه الى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، ولازال هذا المسجدمعروفا بالمسجد النبهانى حتى وقتنا الحالى (٧٠) • وهكذا امتد نفوذ تلك الأسرة الى معظم مناطق الساحل الشرقى لافريقية ، وأصبحت بات مركزا لسلطنة عربية اسلامية ، لعبت دورا عظيما فى نشر لاسلام والثقافة العربية الاسلامية بين الأفارقة الأصليين •

تميز حكم السلطنة النبهانية بتقاليد جديد تتمثل فى الملائمة بين الضرائب وبين النشاط الاقتصادى للسكان ، اذ فرضت ضريبة انتاج مقدارها عشرة بالمائة (٧١) • على مختلف السلع ، بالاضافة الى أن تلك السلطنة أبقت على التقاليد السائدة فيما يتعلق بأسلوب الحكم فى المدن الخاضعة لها ، ذلك أنه قبل ظهور الأسرة النبهانية فى الساحل ، كانت كل مدينة تمارس شئونها بواسطة مجلس شورى يتألف من الشيوخ المحنكين ، وبعضها جعلت لنفسها رئيسا يورث الرئاسة لوريثه حسب التقاليد المرعية • وكان سكان جزيرة بات وحدهم الذين يدينون بالولاء المباشر للسلطان النبهانى ، أما المدن الداخلة فى دائرة نفوذه بما فيها الجزر المجاورة ، فقد كانت تدفع له الجزية فقط ، والدليل على ذلك أن مدينة سييو Siya الواقعة فى نفس الجزيرة ، كان لها مجلس شورى ، ولم يحكمها حاكم معين من قبل السلطان (٧٢) •

---

(٦٩) Trimingham, op. cit., p. 13
والترجمة العربية ، ترنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ، ترجمة محمد عاطف النواوى ، ص ٤٥ ــ ٤٦ •

(٧٠) Oliver & Mathew, op. cit, vol. I, p. 119.

(٧١) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠١ •

(٧٢) Trimingham, op. cit., p 13.

وعلى أية حال ، كانت هجرة قبيلة نبهان العمانية آخر الهجرات العربية الضخمة التى وفدت الى ساحل شرق افريقية • وهنا نلاحظ أن بعض الكتاب الأوربيين وخاصة من الانجليز ، كانوا يحاولون التركيز على الهجرات الفارسية، بغرض اضعاف النفوذ العربى على الساحل ، واعطائه مسحة فارسية ، فشجعت بريطانيا خلال سنوات حمايتها على زنجبار قيام الحزب الأفروشيرازى ، الذى تأسس فى زنجبار لمناهضة الحزب الوطنى ، وقد عرف عن الحزب الأفروشيرازى الادعاء بأن مسلمى الساحل ينحدرون أصلا من فارس وليس من الجزيرة العربية، والهدف من ذلك واضح وهو القضاء على المقومات والتأثيرات العربيـــة • وليس من شك أنه كانت هنالك بعض السمات الفارسية ، الا أنها بطبيعة الحال لم تصل الى ماوصلت اليه السمات العربية فى ساحل شرق افريقية ، بل ليس من المبالغة القول أن تلك السمات الفارسية لم تلبث أن ضاعت فى غمار غلبة الحياة العربية على الساحل الشرقى لافريقية (٧٣) • ويؤكد هذا الرأى ما رواه الرحالة عن أحوال مدن الساحل فى العصور الوسطى ، ونخص بالذكر منهم ابن بطوطة ، الذى زار هذا الســاحل ـ كمــا أسلفنا ـ فى سنة ١٣٣١ ، وخلف لنا أوصافا دقيقة عن الروابط الوثيقة التى قامت بين تلك المدن الأفريقية وغيرها من أرجاء العالم العربى ، سواء فى ميدان التجارة أو العـــــلم (٧٤) •

والخلاصة أنه اذا كانت العلاقة بين العرب وأفارقة ساحل شرق افريقية قد تطورت وبلغت ذروتها بعد ظهور الاسلام ، فان أصول هذه العلاقة ترجع الى ما قبل الاسلام بزمن طويل دون أن يقف فى سبيلها أى عائق • ولاشك أن العرب الذين هاجروا الى ساحل شرق افريقية قد ارتبطوا بالسكان الأصليين وصاهروهم ، وتركوا تأثيرات حضارية وسلالية ودينية لازالت حية حتى اليوم • وتكشف لنا الحفريات التى أقيمت فى مناطق متفرقة من الساحل عن الصورة الرائعة التى كانت عليها تلك المدن والمستوطنات • ويؤكد ذلك أنه فى حوالى القرن العاشر الميلادى ، كانت هناك مستوطنة غنية فى ماندا بالقرب من مدينة لامو ، قامت فيها بيوتا حجرية تدعو للاعجاب ، وشيد بها سور

---

(٧٣) جمال زكريا : الأصول التاريخية ، ص ٧١ ـ ٧٢ •

(٧٤) ابراهيم العدوى : العروبة فى شرق أفريقية ، مجلة نهضة أفريقية ، العدد ١٨ ، مايو ١٩٥٩ ، ص ١٩ •

بحرى لصد الأمواج بأحجار مرجانية اللون ، وعرفت صهر الحديد ، كما عثر بها على كميات وفيرة من الفخار ذى الطابع الاسلامى ، مما يوحى بتجارة نشيطة مع الخليج العربى ، وان كان غياب العملة يشير الى أن تلك التجارة تتم بالمقايضة ، أما الحفريات التى أجريت فى كلوة ، فتثبت لنا أن سكانها كانوا على مستوى عال من المهارة الفنية ، فضلا عن أنها كانت مركزا لشبكة من الاتصالات التجارية بينها وبين مستوطنات الساحل الهامة ، مثل تومباتا ، وبمبا ، وزنجبار ، وفومبا ، وأرخبيل لامو ، ومقديشيو • ويلاحظ أن مدن الساحل فى القرن الخامس عشر الميلادى كانت مخططة بالشوارع التى شيدت على جانبيها البيوت الحجرية المكسوة باللاط ، وقد أحيطت تلك البيوت بأراض زراعية نهض العبيد بزراعتها ، ومن المحتمل أن تكون هناك مستوطنات صغيرة ، قامت بين المدن الهامة الرئيسية ، شيد بكل منها مسجد جامع ، وبيت للحاكم مبنى من الحجر (٧٥) •

المهاجرون الآسيويون :

يطلق مصطلح آسيوى بوجه عام على الشعوب التى ترجع فى أصولها الى الهند وباكستان والصين والملايو ، ويستبعد من هذا المصطلح العرب والفرس فى القارة الآسيوية • ويعتبر الهنود أهم الشعوب الآسيوية التى وفدت الى ساحل شرق أفريقية واتخذته مقرا فى العصور الوسطى • والمعروف أن أولئك الهنود ينقسمون الى مسلمين وهندوس ، ويتبع المسلمون منهم عدة مذاهب أهمها الاسماعيلية ، والبهرة ، والاثنا عشرية • ويلاحظ أن كل طائفة مذهبية ظلت متعلقة بعاداتها وتقاليدها التى أتت بها من الهند ، فى الوقت الذى غلب عليها شعور مذهبى حاد جعل منها مجتمعا متماسكا من جهة،وفى عزلة عن بقية المجتمعات من جهة أخرى (٧٦) • ويلاحظ أيضا أن التجار الهندوس وقفوا من الاسلام والمسلمين فى مدن الساحل موقفا مسالما لم تعكره شائبة ، ونتيجة لذلك استطاعوا

---

(٧٥) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 22.

(٧٦) Hollingsworth, the Asians of East Africa, pp. 3 — 4.

(٧٧) Singh, Portrait of A Minority Asian in East Africa, p. 1.

القيام بأعمالهم التجارية فى حرية واطمئنان على مدى السنين • ومهما يكن من أمر ، فان الهنود الذين كانوا يقصدون ساحل شرق افريقية سواء للتبـــادل التجارى فى مواسم الرياح أو للاقامة الدائمة ، أثبتوا أنهم أكثر الشعـــوب الآسيوية التى عرفها هذا الساحل نشاطا واهتماما بالتجارة ، فقد ساهموا بدور هام فى تجارة المحيط الهندى ابان فترة ازدهارها ، وبعد أن تحطمت تلك التجارة على أيدى البرتغاليين ، ظلت الحاجة ماسة لمهارتهم وخبرتهم (٧٧) •

والواقع أنه من الصعب علينا أن نحدد الفترة التى بدأ فيها الهنـــود يفدون الى الساحل الشرقى الأفريقى ، وان كان من المحتمل أنهم اقتفوا آثار العرب خلال هجراتهم المتوالية الى هذا الساحل منذ عصور موغلة فى القدم(٧٨)، وأقاموا معهم فى مستوطناتهم ومراكزهم التجارية ، التى بلغت شأوا بعيدا فى الازدهار بين عامى ٨٠٠ و ١٥٠٠ م • فقد شهدت تلك الفترة نشاطا تجاريا ملحوظا فى مياه المحيط الهندى ، قام على أيدى التجار العرب المستقرين فى مدن الساحل ، حيث كانوا يصدرون العاج والذهب والعبيد الى شبه الجزيرة العربية وفارس والهند ، ويجلبون السلع التى اشتهرت بها تلك البلاد • والجدير بالذكر أن التجار العرب فى الجزء الغربى من المحيط الهندى ، لم يوجهوا عنايتهم الى التنظيمات المالية المتعلقة بتجارتهم ، واكتفوا باسناد شئونها الى الهنود المقيمين معهم ، لبراعتهم فى هذا المجال ، وعلى وجه الخصوص فى أعمال الصيرفة (٧٩) • كما أن العرب والهنود المقيمين فى الساحل لم يظهروا الرغبة فى كشف القارة الواسعة الواقعة خلف الساحل ، وتركز نشاطهم عـــلى السلع التى كان يأتى بها الأفارقة من الداخل ، مثل العاج والعنبر والذهب والعبيد ، ومقايضتها بالسلع التى كانوا يجلبونها من الخارج مثل الخرز والزجاج والأشغال المعدنية والملابس (٨٠) •

وعندما غزا البرتغاليون ساحل شرقى أفريقية فى عام ١٤٩٨ وجدوا العديد

---

(٧٨) Ingrams, op. cit., pp. 33 — 35.

(٧٩) Hollingsworth, op. cit., p. 12, Marsh & Kingsnorth, op. cit., pp. 23 — 24

(٨٠) Marsh & Kingsnorth, op. cit., p. 24.

من الهنود في الموانى الهامة ، فظنوا فى البداية أنهم مسيحيون مثلهم ، ولكن البرتغاليين سرعان ما وقفوا على حقيقة أمر الهنود ، اذ تبين لهم أنهم غير مسيحيين ، ويدينون بالطاعة التامة للعرب ، الذين كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية (٨١) ٠

بقى أن نذكر أن عرب ساحل شرق أفريقية أطلقوا على الهنود اسم بنيانى Banyani ، وهو تحريف للكلمة الهندوستانية بنيا Bunia ومعناها تاجر ، وهم يتميزون بالهدوء والمسالمة والميل الى العزلة ، وعرف عنهم حبهم الشديد للمال ، حتى وصفهم العديد من الرحالة الأوربيين بيهود الشرق ، ومن أولئك الرحالة الألمانى فان ليخوتن الذى قضى بضع سنوات فى جوا فى نهاية القرن السادس عشر ، والرحالة الأمريكى روشنبرجر الذى زار زنجبار فى سنة ١٨٣٥ ، حيث لاحظ أن الهنود وسط العرب ، مثلما كان اليهود وسط المسيحيين ، فهم تاجرون ويحبون المال حبا جما ، ووصفهم الرحالة بيرتون «باليهود المحليين» وأشاد بهدوئهم وصراحتهم ولباقتهم ، أما الرحالة هنرى مورتون ستانلى الذى تعامل كثيرا مع التجار الهنود خلال اعداد قافلته فى زنجبار سنة ١٨٧١ ، فقد ذكر أن البنيانى يبدو مثلا أعلى للرجل الحريص على جمع المال ، ففى جيوبه الواسعة ينساب المال ، كما ينساب الماء أسفل منحدر شديد (٨٢) ٠

أما الصينيون ، فقد سبقت الاشارة الى أن أساطيلهم التجارية زارت ساحل شرق أفريقية ٠ ومما يؤكد الاتصال التجارى بين الشرق الأقصى وساحل شرق أفريقية اكتشاف أعداد هائلة من العملات الصينية فى مقديشيو وكلوة ومافيا وغيرها ، يرجع تاريخها الى الفترة الواقعة بين سنتى ٧١٣ و ١١٦٣م (٨٣) ، وقد قام قسم العملات فى المتحف البريطانى بفحصها،وتبين أنها منسوبة الى الامبراطور شن تسونج الذى حكم الصين بين سنتى ١٠٦٨ و ١٠٨٦ م (٨٤) ٠ وفى القرن الخامس عشر الميلادى كان الخزف الصينى فى

---

(٨١) Hollingsworth, op. cit., p. 24.

(٨٢) Ibid., pp. 127 — 128.

(٨٣) Eliot, The East Africa Protectorate, p. 11

(٨٤) Pearce, op. cit., p. 49.

كلوة أكثر شيوعا من الخزف الاسلامى ، فى الوقت الذى كانت كميات ضخمة من الأقمشة القطنية ترد الى كلوة من الهند والصين (٨٥) • وتفيد المصادر الصينية أن أسطولا صينيا زار مدينة مقديشيو فى سنة ١٤٣٠ لغرض التجارة ، وفضلا عن ذلك تزعم عائلة فى مدينة لامو أنها من أصل صينى أو ملاوى (ماليزى)، وقد هبط أسلاف تلك العائلة ساحل المدينة بسبب تحطم سفينتهم (٨٦) •

ومن الشعوب الآسيوية التى استقرت فى ساحل شرق أفريقية جماعات من الشعب الملاوى Malays ، وهو شعب بحار عرف بشجاعته وميله الى المغامرة ، فقد سيطر منذ تاريخ مبكر قديم على خليج البنغال ، وأسس مستوطنات فى جاوه وسومطرة وبورنيو وغيرها من الجزر • وتجمع آراء الباحثين على أن الشعوب الملاوية ــ البولينزية قد وفدت الى الساحل حتى مدغشقر منذ أمد بعيد ، ويؤكد ذلك الصلات اللغوية القوية بين تلك الشعوب وأهالى مدغشقر ، هذا ومن المعروف أن قبيلة أنتيمارانا وهى قبيلة مدغشقرية يرجع أصلها الى الملايو أوجاوة ، وقد وفدت الى ساحل مدغشقر منذ بضعة قرون ، ثم تحركت الى الداخل • ومن المحتمل أن الملاويين قد عرفوا مناطق الساحل الشرقى لأفريقية قبل ذلك ، اذ اعتاد تجارهم التردد على سفالة لتبادل التجارة مع سكان الساحل ، ومما يذكر أن العادات المتبعة عند مولد طفل بين أهل زنجبار تشبه تماما مثيلتها فى الملايو ، ومن المرجح أن الملاويين هم الذين جلبوا الى الساحل أنواعا من النباتات المعروفة عندهم ، مثل شجرة الأريقة (وهى من الفصيلة النخلية) والتامبول وقصب السكر ، كما اعتاد أهالى الساحل استخدام فخار من نوع قديم يقال أنه جلب من الملايو (٨٧) •

---

(٨٥) Curtin, Feierman, Thompson & Vansia, African History, p. 143.

(٨٦) Eliot, op. cit., p. 11.

(٨٧) Eliot, op. cit., pp. 86 — 87.